فلسطين إلى أين؟

فيصل درّاج*

الثقافة بين الفاشية والصهيونية

في الحديث عن دور الثقافة في مواجهة الفاشية، ما يستدعي أطياف الناقد الهنغاري جورج لوكاتش، حين طالب في ثلاثينيات القرن الماضي التي شهدت صعود النازية الألمانية والفاشية الإيطالية، بالدفاع عن قيم "الثقافة الإنسانية"، في مقابل ثقافة بربرية عنوانها الأكبر: "تحطيم العقل". آنذاك، دعا الناقد الأدبي الشهير إلى "جبهة ثقافية" قوامها "المثقفون الديمقراطيون"، ترى في الرأسمالية مصدراً للحرب والعدوان. غير أن في تحولات الزمن، بعد ثمانية عقود، ما أسبغ على "الفاعلية الثقافية" يتماً صريحاً، وما أسقط عن اليسار هالة قديمة عبثت بها الأيام. ولهذا، فإن "فاشية اليوم"، كما إمكانات محاربتها، تغاير تلك التي صعدت في النصف الأول من القرن العشرين، بعدما اتخذت صفة "الشعبوية الكونية" التي تنفي السياسة، وتحتكم إلى "دين" كأنه قومية، أو إلى "قومية" كأنها دين، وتساهم، في الحالين، في "تحطيم العقل".

لم يكن "الغرب الرأسمالي" ديمقراطياً في يوم من الأيام، منذ أن اختصر في ذاته حلم "الإنسان الشامل"، ورأى في "الآخر"، أي إنسان "القارات الثلاث"، مادة صماء جديرة بالتأديب والانصياع. فقد حاول الفرنسيون إتلاف اللغة العربية في الجزائر، وقصف الإنجليز الفلسطينيين، في إبّان ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، "ببراميل المواد المتفجرة"، وحوّلت الولايات المتحدة أميركا اللاتينية إلى مزرعة للنهب والانقلابات العسكرية. وما إن جاء الاستقلال الوطني في العالم العربي، على سبيل المثال، حتى جاء الغرب بما يقوّضه، منذ أن تبادل سايكس ـ بيكو الرأي عن دور الأقليات، كما جاء في كتاب المؤرخ الفرنسي هنري لورانس: "اختراع الأراضي المقدسة"، وصولاً إلى دعم أنظمة تعيد إنتاج التخلف الاجتماعي بكفاءة عالية.

وفي إطار إعادة إنتاج التخلف، هزم الغرب، المتحالف مع إسرائيل، "التجربة الناصرية" في سنة ١٩٦٧، واستثمر المنتصرون، أكانوا عرباً أم يهوداً أم غيرهما، الانتصار لتدشين حقبة جديدة في العالم العربي عنوانها: "الصحوة الإسلامية" التي

* كاتب وناقد فلسطيني.

أنجزت "انتقاماً متأخراً" من عصر التنوير العربي، فأَبْلسَتْه ورمت بصفة "المروق" على كل ما هو حداثي، في الأدب والسياسة معاً. وإذا كان المستشار الأميركي "بريجنسكي" اجتهد في مطلع سبعينيات القرن الماضي، في الحديث عن "استعمال العامل الإسلامي"، فإن أنظمة عربية متعددة، مدعومة بما تشاء من "رجال الدين" والمثقفين المرتدين، اجتهدت في توليد "إسلام سلطوي" يزهد في شؤون الدنيا وفي معاش البشر، وينصرف إلى "عذاب القبر".

وأنتجت عقود متواترة، رضي فيها الغرب الرأسمالي عن "أنظمة التخلف العربية"، ما يمكن أن يُدعى: "إسلام الفقراء"، الذي هو محصلة لتكامل الاستبداد السياسي وتدمير "حقوق الإنسان". وقد عمل هذا "الإسلام الفقير" على تسييس الدين بشكل جهول، وتديين السياسة بشكل أكثر جهلاً، وصولاً إلى "الكائن الأجوف"، الموزع على "الجوع الخائف"، في انتظار هجرة موعودة إلى "أرض السعادة في الغرب".

وكان للثقافة دورها الفاعل، ولو بشكل نسبي، في زمن الأحزاب والكلام السياسي اللذين أجهزت عليهما الأنظمة العربية، بضجيج تارة، ومن دون صخب تارة أُخرى، إلى أن غدا المثقف مغترباً ومحاصراً في آن. ولهذا، فإن دور الثقافة اليوم هو الدور الذي قامت به منذ عقود، ولم يجد جمهوراً صاغياً، ولم تعترف السلطات بوجوده. فقد كتب خلدون النقيب: "الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر"، وهو فريد في صوته، ونقد فؤاد زكريا "الصحوة الإسلامية في ميزان العقل"، التي هي غفلة، وأكثر السوري ياسين الحافظ من الحديث عن "اللاعقلانية في السياسة العربية"، وأعطى مهدي عامل "نقد الفكر اليومي"، وكان قسطنطين زريق، منذ سنة ١٩٥٩، قد تكلم على "العروة الوثقى" بين الديمقراطية والقومية في كتابه "نحن والتاريخ".

وواقع الأمر أن الفعل الثقافي هو فعل سياسي، وأن كسوف السياسة يترك للثقافة دور الشرح والتفسير، ولا يجعلها فاعلة إلاّ في شروط سياسية ـ ثقافية موائمة. وآية ذلك، اليوم، دور المثقفين الفرنسيين في بلد له علمانيته الشهيرة، "تصدمه" نوازع فاشية غير مسبوقة. فقد تكلّم الفيلسوف آلان بادو على الأزمة والبطالة والعنصرية في كتابه "الفرضية الشيوعية"، وكان بيار بورديو قد عالج بؤس "العمّال المهاجرين" في كتابه: "بؤس العالم"، الذي ظهر في تسعينيات القرن الماضي، وأكمل الحديث المؤرخ إمانويل تود في كتابه "مَن هو تشارلي"، الذي توقّع فيه ألاّ يكون الهجوم الدامي على "المجلة الفوضوية" هو الأخير، ما دام في النظام الفرنسي ما ينتج الحرمان وكراهية "الآخر".

لا يتبقّى من الثقافة، في زمن العماء الاجتماعي المسيطَر عليه سلطوياً، إلاّ مقولاتها "اليتيمة" التي تعني: الشرح والتفسير وتبيان الأسباب، ذلك بأن كل فكر ظلامي إنما ينكر الأسباب ويتوجه إلى مجهول، أكان فكراً منحازاً إلى "جماعة"، أو شبه فكر يطمئن إلى الأشخاص، ويشخصن الدين والحقيقة في خطيب مفوّه راعد الصوت، ولا سيما أن الوعي الديني الفقير يساوي بين رجل الدين وشكله، ويزهد في المضمون.

إذا كانت صورة الإسلام المسيطر مأخوذة من صور الذين ينتمون إليه، فإن في هذه الصورة اليوم ما يستدعي أمرين: أولاً، الخوف من الجوع والحاكم وعذاب القبر، والكراهية التي تشمل "الآخر"، بمعرفة أو من دونها؛ ثانياً، ما لا يحيل على الحياة و"عذاب القبر"، مثل الرواية والموسيقى وقبول الاختلاف.

في الموضوع الذي نقاربه، ما يربط، بشكل غير مباشر ربما، بين الصهيونية والفاشية. ومع أن في الصهيونية بُعداً من أبعاد الفاشية، مثل عدم الإيمان بتساوي البشر، فإن الصهيونية ليست ظاهرة فاشية، وما جاء بها يغاير ما ساهم في توليد الفاشية وصعودها. فلا يمكن أن تفسَّر بأزمة رأسمالية دورية، ولا بعمال مهاجرين قذفت بهم أنظمتهم المستبدة إلى الشمال، ولا بإسلام الضعفاء، وإنما وهي، كما كانت، وكما ستكون إلى أمد غير منظور، "مشروعاً استيطانياً" عنصرياً مسلحاً، قام بطرد الفلسطينيين إلى خارج أرضهم التاريخية، وطاردهم أكثر وهم يدافعون عن حقوقهم. ولذلك فإن سؤال الثقافة، في هذا المجال، له وضع مختلف، أجاء من فلسطيني حلم ذات مرة "بالمصالحة"، مثل إميل حبيبي، أو من "عاموس عوز" الذي بدا عامراً بالإنسانية في روايته "ميخائيلي"، وبدا صهيونياً متسقاً، وهو يقف مرة، إلى جانب هشام شرابي فوق هضبة الجولان. ولأن الصهيونية لم تأتِ إلى فلسطين بأدوات ثقافية، كان الأدب الصهيوني طليعة الصهيونية السياسية، كما قال غسان كنفاني، ولهذا، فإن الإجابة عنها "عملية"، لا تقترح القلم ولا تحتفي بالورق، وإنما تتمثل في كفاح شعبي تحرري، متعدد الوسائل.

إن الثقافة الفلسطينية كانت ولا تزال ماثلة في الوقائع الكفاحية الكبرى، المتمثلة في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ وانتفاضة ١٩٨٧، اللتين كان عليهما كي تكتملا أن تتحولا إلى وقائع ثقافية نوعية، تجدّد الوعي والمحاكمة، وتعيد تقويم الأنا و"الآخر الصهيوني"، على ضوء صراع يبدو مفتوحاً إلى الآن.

وواقع الأمر أن هذه الثقافة لا تصدر عن "الأنا"، من حيث هي صاحبة حق، ولا عن "الآخر" كمحتل للأرض بالسلاح، وإنما تصدر عن التعامل النقدي مع أشكال الصراع المستمر بينهما، والذي يستلزم مراجعات نقدية دورية. والمراجعة الثقافية، المطلوبة فلسطينياً، قوامها تحديد إمكانات الطرفين "المتصارعين"، من دون أوهام، أو مقايسات ماضوية، أو "محاكاة وهمية"، تُبقي الأول في مكانه، ولا تأتي إلاّ بخيبة جديدة، في حال "الاحتكام إلى السلاح" بمعزل عن السياق وعناصره، ذلك بأن الثقافي الفلسطيني الذي يحاكي، وهماً، الثقافي الصهيوني يصل، في المآل الأخير، إلى ثقافة صهيونية، جوهرها العنصرية و"شعب الله المختار".

ومع أن الماضي يشكّل علاقة عضوية بالحاضر، فإن هذا القول الصحيح لا يستقيم سوى بتأكيد أمرين: أولاً، لا يكون التذكر فاعلاً، في حال الإنسان المضطهد، إلاّ إذا أدرك أن في الموروث ما يستدعي الإضافة والحذف معاً، فليس كل ما له علاقة بالماضي جليل الفائدة، وليس كل ما هو فولكلوري موروث يشكّل جزءاً من الهوية الوطنية؛ ثانياً، الماضي لا يستمر فعلياً في الحاضر، إلاّ إذا أدرك الوعي الفرق بينهما، وأن لكل زمن أسئلة وإجابات خاصة به. والموضوع، في جوهره، يدور عن الفرق بين "استعادة الأرض" والتحرر الوطني، من حيث هو تحرر إنساني لا يتلاءم مع المراجع الضيقة (العائلة والحمولة)، ولا مع منظور يفصل بين "اليهود" والمسلمين، فليس كل يهودي عنصرياً، ولا كل "مسلم" مرآة للفضيلة، لأن التحرر كوني الغايات، يبدأ من الإنسان لا من "الحمولة والدين"، ويتجاوز التاريخ والجغرافيا معاً.

كيف يخلق الفلسطيني ثقافة مغايرة، على مستوى القيم ومنظور العالم، ويجعل من

الواقعة الكفاحية واقعة ثقافية؟ هذا هو السؤال، الذي لازم الفلسطينيين مئة عام، ولا يزال مفتوحاً!!

الثقافة نور وفعل ومقاومة مستنيرة، والدعوة إلى استعادة فلسطين ضرورة تاريخية عاقلة. كيف يصل الفلسطينيون المحاصرون بخيباتهم وخيبات عالمهم العربي، إلى تحرر مستنير يفتح للمسألة الوطنية أفقاً جديداً؟ ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بين منشية يافا وجبل الخليل

يوميات محمد عبد الهادي الشروف

(١٩٤٣ ـ ١٩٦٢)

إعداد وتحرير: أليكس ويندر

تقديم: سليم تماري

٣٥٢ صفحة ١٢ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بترول شرق المتوسط: الأبعاد الجيوسياسية

تحرير: وليد خدوري

١٦٣ صفحة ٨ دولارات